اللغة مرآة العقول

هناك، حتى الساعة، في مجتمعاتنا المشرقية كتّاب مجيدون، وشعراء مطبوعون، وأدباء بارعون، وخطباء مبرّزون، وكلهم يستمدّون، في إنشائهم الأدبي خصوصاً، من الينبوع الزاخر، ينبوع اللغة المتدفق من المعاجم، ينتقون الألفاظ الملائمة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم فصاحة وبلاغة.

أما البُحّاث واللغويون الذين جمعوا شتات اللغة أو ابتدعوا كل جديد، فقد كان لهم الفضل العميم على اللسان العربي وأهله مدى الدهر. هؤلاء جميعاً أوتوا كثيراً من القرائح الوقّادة واذّخروا كمّاً من المعارف الفيّاضة، وبذلوا جهوداً جبّارة يُشكرون عليها.

وعصرنا هذا، عصر الاكتشافات والاختراعات المذهلة والسريعة وبعضه مبارَك محمود ولا سيما في بلاد الناس. ولكنّ مجتمعاتنا تعيش في مخاض سياسي واجتماعي عسير بتأثير التعصّب الديني والصراعات الإقليمية والدولية فضلاً عن الأوبئة المعروفة وغير المعروفة.

ومهما يكن من أمر، ولربما بفضل هذه الأزمات المزمنة أو العابرة، نسأل: أين وزارات الثقافة (مع تنويهنا بمكانة الزراعة!) والتربية والإعلام... من الاهتمامات الجديّة ولو بشؤون اللغة وشجونها، مما لا يستلزم سوى قليل من الفطنة والإرادة والإبداعية؟ لمَ لا نتجلّى، أقلّه، وطن المجامع والندوات اللغوية التي شأنها أن تذكّرنا بعهد العلوم اللسانية والمعارف الدخيلة، عهد التعريب والترجمة في بيت الحكمة، في دار السلام؟!!

وكما زاد كنز اللغة في ذلك الزمان بالأوضاع المستحدثة، فازدهرت وأصبحت آلة مرنة لشتى العلوم ومرافق الحضارة، فلمَ لا يتحرّك أحد المسؤولين ولو للمساهمة الأولية في تواصل سير لغتنا في عزم وأقدام في سبيل الانتعاش، فيزخر كنزها، وتتضاعف ثروتها، بهمّة بعض العلماء وعبقرية بعض الكتّاب على ندرتهم هذه الأيام، وكلٌ في ميدان اختصاصه؟ لمَ لا تتحرّك إدارة ما في الدولة كالمركز التربوي أو المؤسسات التربوية الأخرى، أكانت عامة أم خاصة، في سبيل استنباط المصطلحات الجديدة في أبواب العلوم والتقنيات العصرية، أسوة بأسلافهم علماء البصرة والكوفة، ودار الحكمة البغدادية؟!!

اللغة مرآة العقول، وآلة سحرية لأداء الخواطر. مَن تراه في هذه الدول الكرتونية يسعى لتحقيق هذا المشروع البديهي وإنما الأساسي؟ هل ترانا سنظل نحلم وندبّج المقالات وننشئ الكتب حصراً للتاريخ والذكرى؟!

ان معظم «مسؤولينا» أشبه ما يكونون بالباحث عن حتفه بظلفه!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه